تفاعل الثّقافات ...

عوامل الاتّصال أقوى من عوامل الانفصال

مدخل :

يقول أحَدُ الدّارسين : **" أصبح العالَمُ قَرْيةً صَغيرةً ."** والمقصودُ بذلك تَحْديدًا ذلك الاتّصالُ الّذي عُقِدَتْ بِموجِبِهِ الصّلةُ وثيقةً - بإرادةٍ أو بِدونِ إرادةٍ - بين أصْقاعِ العالَمِ ، وبَين مُختَلَفِ الشُّعوبِ بِفِعْلِ التّطَوُّرِ الهائلِ الّذي شَهِدَتْهُ وسائلُ الإعلامِ وطَرائقُ الاتِّصالِ .

غَيْرَ أنّ هذا القَولَ - وإنْ بَدا صائبًا مِنْ بَعْضِ الجوانِبِ - فَإنّهُ يَبْقى في حاجةٍ إلى شَيْءٍ مِنَ المُراجَعَةِ والتّمْحيصِ مِنْ بَعْضِ الجوانِبِ الأخرى. ونَعْني أساسًا الجانِبَ الحَضارِيَّ والثّقافِيَّ .

فَهلْ إنّ العالَمَ يَسيرُ فِعْلاً نَحْو التّوحُّدِ حَضارِيًّا ؟ أمْ إنّ هُناكَ فَواصِلَ وحُدودًا بينَ الحضاراتِ لا تَمّحي؟ وما حُدودُ القَولِ بالتّفاعُلِ الإيجابِيِّ بين الحضاراتِ والثّقافاتِ ؟

لِلإجابَةِ عن هذهِ التّساؤلاتِ وتَساؤلاتٍ أُخرى ، سَنبْحَثُ علاقةَ الشّرْقِ (العَرَب - المُسلمين) بالغَرْبِ (أوربّا أساسًا) لِنَنْظُرَ في واقِعِ هذهِ العلاقَةِ ماضِيًا وحاضِرًا وما يجِبُ أنْ تكونَ عليهِ مُسْتَقْبلاً.

****

مِنَ المُرَجَّحِ تاريخِيًّا أنّ أوّلَ اتِّصالٍ بين الشّرْقِ والغَرْبِ في العصرِ الحديثِ يَعودُ تاريخُهُ إلى حملةِ **نابليون بونابارت NAPOLEON BONAPART*** على **مِصرَ** سنة **1798**.ولَقَدْ أحْدَثَ هذا الاحتِلالُ ما يُشْبِهُ الصّدْمةَ الّتي أخذتْ بِألْبابِ المِصْريّينَ إزاءَ مُسْتوى التّحَضُّرِ الّذي بَلَغَهُ الفِرنسِيّونَ.ومُنذُ ذلك الزّمنِ ، اِنْبَثَقَتْ الأسئلةُ مُمِضّةً عاتِيةً تُراجِعُ مُسَلّماتِ الماضي وتَبْحَثُ عنْ سُبُلِ الخَلاصِ ووسائلِ النّهوضِ.وجاءت الإجاباتُ

---

* **نابوليون بونابارت Napoléon Bonaparte** (**15** أوت **1769** - **05** ماي **1821**) كان يُعرَف باسم الامبراطور **نابوليون الأوّل** ,كان قائدا عسكريّا و سياسيّا و إمبراطور الفرنسيّين فى أوائل القرن التّاسع عشر . وُلد فى جزيرة كورسيكا و تدرّب كي يكون ظابط مدفعيّة فى فرنسا ، و اشتهر أيّام الجمهوريّة الفرنسيّة الأولى لمّا قاد حملات ناجحة ضدّ التّحالف الأوّل و التّحالف الثّانى أيّام الثورة الفرنسيّة.فى عام 1798 نظّم حملة عسكريّة على مصر ,عُرفت باسم الحملة الفرنسيّة،وهي الّتي أشْهرَت ناپوليون كثيراً رغم فشلها العسكريّ لكن كانت لها نجاحات في مستويات أخرى.

2017 Tunisie College.net

مُخْتَلِفةً باختِلافِ وِجْهاتِ النّظَرِ والقناعاتِ؛ فَهناكَ مَنْ يَرْفُضُ حَضارةَ الغربِ رفضًا قَطْعِيًّا بِتِعِلّةِ أنّهُمْ " **دارُ كُفْرٍ** " ولا يجوزُ الأخْذُ عنهُمْ والاقْتِداءُ بهم. وهناكَ مَنْ يُقْبِلُ عليهم كُلَّ الإقْبالِ، ويدْعو إلى الأخذِ عنهمْ والاقْتِداءِ بِهِمْ حَدَّ التّماثُلِ. ويأتي مَوْقِفٌ وسَطٌ يرى أنّهُ من الضّروريِّ أنْ نَسْتَنِدَ إلى المُكتَسَباتِ الحضارِيّةِ والثّقافِيّةِ الّتي تُمَيِّزُ هَوِيّتَنا العربيّةَ الاسلامِيّةَ ونُطعّمها بِما تَوصّلَ إليه العَقْلُ الغربيُّ. ومنْ هُنا بَدا مَشْروعًا الحديثُ عنِ التّفاعُلِ الثقافيِّ بين الشّعوبِ. ومنَ المُفيدِ ـ للخَوْضِ في هذهِ المسألةِ ـ النّظَرُ في حقيقةِ هذا التّفاعُلِ ماضِيًا وحاضِرًا وما يجِبُ أنْ يكونَ عليهِ مُسْتَقْبَلاً.

الإسـلامُ : قطيعـة و تـواصُـلٌ :

جاءَ الإسلامُ لِيُقَوِّضَ دعائمَ المُجْتَمَعِ الجاهِلِيِّ ويُرْسِيَ دَعائمَ مُجْتَمَعٍ جَديدٍ تَتَساوَقُ وَتَعاليمَ الدّينِ الجديدِ.غَيْرَ أنّ القطيعَةَ لَمْ تَكُنْ كُلِّيّةً؛ فالإسلامُ قَدْ قَطَعَ معَ قِيَمٍ بائدةٍ تُشَرِّعُ الظُّلْمَ الاجتِماعِيَّ والقَهْرَ والعَصَبِيّةَ والهَمَجِيّةَ مِثلَ الثّأرِ ووَأْدِ البناتِ ...لكنّهُ وفي نَفْسِ الوقْتِ أبْقى على بَعْضِ القِيَمِ الأخْرى الّتي حَضَّ عليها وشَجّعها مثلَ الكَرَمِ والإباءِ والوفاءِ ...ويُذْكَرُ أنّ الرّسول صلّى الله عليه وسلّم لمّا أُتِيَ بـ**سَفانة بنتِ حاتمٍ الطّائيّ*** ضِمْنَ السَّبايا (النّسوة الأسيرات في الحرب) قال لأصحابِهِ : " **أطْلِقوها** ...**إنّ أباها كان يُحِبُّ مكارِمَ الأخلاقِ** ." فيَتّضِحُ منْ خِلالِ هذا الخبَرِ أنّ الرّسولَ صلّى الله عليه وسلّم كان يَحُضُّ على اعْتِناقِ بَعضِ القِيَمِ الّتي كانت مِنْ مرتكزاتِ نِظامِ القِيَمِ في الجاهِلِيّةِ.

مِنْ خِلالِ ما تَقَدّمَ نرى أنّ الإسْلامَ قَدْ سَلكَ سُلوكًا انْتِقائيًّا تُجاهَ ما كانَ سائدًا، فَقَطَعَ مع بعضِ القِيَمِ وكَرّسَ بَعْضَ القِيَمِ الأُخْرى. فَيَبْدو واضِحًا ذلكَ التّفاعُلُ بينَ ثَقافَةِ الإسلامِ وثقافةِ العَصْرِ الّذي سَبِقَهُ وإنْ كانَ هذا التّفاعُلُ نِسْبِيًّا انْتِقائِيًّا. وبِتَصَفُّحِ سيرةِ السّلَفِ مِنَ المُسْلِمينَ الأوائلِ،نجِدُ أنّ الرّسولَ صلّى الله عليه وسلّم والصّحابةَ لَمْ يَنْتَهِجوا سبيلَ الصّدِّ والإقصاءِ إزاءَ الآخرِ، بلْ سَلكوا سِياسَةً تَقومُ على الانفِتاحِ. فالرّسولُ صلّى الله عليه وسلّم تَعامَلَ مع اليهودِ ولَمْ يُقْصِهِمْ عنْ حَظيرةِ الدّولةِ.فكان مُتسامِحًا

---

* **سَفانة بنت حاتم الطّائيّ** : اِبنةُ مَضْرِب المَثَل العَربيّ في الكَرَم **حاتم الطّائي**، أسَرَها المسلمون بعد غزوهم لبلاد طيء. ولمّا قدمت مع الأسرى إلى النّبيّ **محمّد** صلّى الله عليه و سلّم قالت له: "يا محمد ! إن رأيتَ أنْ تُخلّيَ عنّي فلا تُشْمِتْ بي أحياءَ العربِ . فإنّي ابنةُ سيّدِ قوْمِي، وإنّ أبي كان يفُكُّ العانيَ،ويحمي الذّمارَ،ويُقْري الضّيفَ، ويُشبِع الجائعَ، ويفرّج عن المَكروبِ، ويُفْشِي السّلامَ ويُطْعِم الطّعامَ، فارْحموا عَزيزَ قوْمٍ ذلّ ". فقال لها النّبيُّ **محمد** صلّى الله عليه و سلّم : " يا جاريةُ، هذه صِفةُ المؤمنِ حقاً، لوْ كان أبوكِ مُسلِماً لَترحَّمْنا عليهِ. خَلّوا عنها... فإنّ أباها كان يحبُّ مكارمَ الأخلاقِ، واللهُ يحبُّ مَكارِمَ الأخلاقِ ."

2017 Tunisie College.net

معَهُمْ وإنْ اختلفوا في العقيدةِ. وكذلك كانَ الأمْرُ مع الخُلفاءِ والصّحابةِ.

ولَقَد اسْتفادَ السّياسِيّونَ وحُكّامُ الدّولةِ العَربيّةِ النّاشئةِ مِنْ تَجاربِ غَيْرِهِمْ مِنَ الأمَمِ واسْتَلْهَموا تُراثَ غَيْرِهِمْ وثَقافَتَهُ. فَأخَذَ **عُمَرُ بنُ الخَطّابِ** عَنِ الفُرْسِ والرّومِ بَعْضَ التّنْظيماتِ الإداريّةِ؛ فأنْشَأ الدّواوينَ (وهي بِمثابةِ الوزاراتِ في التّنظيمِ الإداريّ الحالي) مِثلَ **ديوانِ الخَراجِ** و**ديوانِ الجُنْدِ** و**ديوانِ الرّسائلِ** ...

ولَئِنْ نَشأت الدّولةُ الأمويّة "**عربيّةً أعْرابيّةً**" على حدِّ تَعبيرِ **أبي حَيّان التّوحيديّ**، فإنّها لَمْ تَقْطَعْ مع غيرها من الأمَمِ والشُّعوبِ. فاسْتفادَ بَنو أُمَيّةَ مِنْ حضارةِ الآخَرِ؛ فاتّخذوا القُصورَ والدُّورَ مُحاكاةً للفُرْسِ والرّومِ. وتَفَنّنوا في الزّخارِفِ والمِعْمارِ، واتّخذوا الحُجّابَ واسِطَةً بينهم وبين الرّعِيّةِ تَأسّيًا بِغيرِهِمْ منْ مُلوكِ العَجَمِ.

وفي العَصْرِ العَبّاسِيّ، حَدث ذلك التّلاقُحُ العِرْقيُّ الّذي لا عَهْدَ للدّولَةِ العَربيّةِ الإسلاميّةِ بِمِثْلِهِ نَتيجَةَ اتّساعِ دائرةِ الفُتوحاتِ. وكانَ مِنَ الطّبيعيِّ أنْ يَحْصُلَ نَوْعٌ من التّمازُجِ الفِكْريِّ والثّقافيِّ بين العَرَبِ وبَقيّةِ الأجْناسِ الّتي انْخَرَطَتْ في سِلْكِ الدّوْلةِ العَرَبيّةِ الإسلامِيّةِ. وقَد احْتَضَنَ العبّاسِيّونَ تلكَ الثّقافاتِ، بلْ سَلكوا سِياسَةً أكثرَ انفِتاحًا مِمّا شَجّعَ العناصِرَ غَيْرَ العربيّةِ على الإبداعِ في مُخْتَلَفِ المَجالاتِ. فَنَبَغَ منهم الكثيرُ. ويَذْكُرُ **ابنُ خَلْدون** في "**المقدّمة**" أنّ حَمَلَةَ العِلْمِ في الإسلامِ أكثرُهمْ مِنْ غَيْرِ العربِ. يَقولُ في ذلك: "**مِنَ الغريبِ الواقِعِ أنّ حَمَلَةَ العِلْمِ في المِلّةِ الإسلامِيّةِ أكْثَرُهُمُ العَجَمُ لا مِنَ العُلومِ الشّرْعِيّةِ ولا من العُلومِ العَقْلِيّةِ إلاّ في القَليلِ النّادِرِ**".

المقدّمة/الفصل الخامس والثّلاثون/ص 600

ومِنْ بينِ الّذين سَطعَ نَجْمُهُمْ في مجالِ الطّبِّ:

* **أبو بكرٍ الرّازي**: هو أبو بكرٍ محمّدٌ بنُ زكريّاء الرّازي. فارسِيٌّ من مدينةِ **الرّي**. تُوُفّيَ سَنة **313 هـ** المُوافق لـ **925 م**. لُقّبَ **بِجالينوس العرب**. أدارَ مُستشفَياتٍ عديدةً بالرّيِّ ثمّ بِبَغدادَ. مِنْ مُؤلّفاتِهِ "**بُرْءُ السّاعةِ**" و"**كتاب الحاوي**".

* **اِبنُ سينا**: هُو أبو عليٍّ بن عبد الله بن سينا. فارسِيُّ الأصْلِ منْ **بُخارى**. تُوُفّيَ سنةَ **429 هـ** الموافق لـ**1037 م**. من أهَمِّ مُؤلّفاتِهِ "**القانون في الطّبّ**" و"**الشّفاء**". وكان يُلَقّبُ **بالطّبيب الرّئيس**.

ومِنْ مَشاهيرِ الأطِبّاءِ نذكُرُ أيْضًا **جبرائيل بن بَخْتَيْشوع** في عهد **هارون الرّشيدِ**

2017 Tunisie College.net

و **يوحنّا بن ماسَوَيْه** في عَهدِ **المُعْتَصِم** .

و في مَجالِ الفلسفةِ نَذْكُرُ :

* **أبو نصرٍ الفارابيّ :** أصْلُهُ مِنْ **فاراب** مِنْ بلاد التّرك. لكنّ نَسَبَهُ فارِسِيٌّ . تُوفِّيَ سنة **339 هـ** الموافق لـ**950 م** . و هو المُلَقّبُ **بالمعلّم الثّاني** (بعد **أرسطو**).اهتَمّ بأعْمالِ **أرسطو** و**أفلاطون** . من مؤلّفاتِهِ : **في إحصاءِ العلومِ والتّعريفِ بأغراضها.**

* **الطّبَريُّ :** و هو أبو جَعفر بن جريرٍ. تُوفِّيَ سنة **310 هـ** الموافق لـ**922 م** . وُلِدَ في **طبرستان** من بلاد فارس . و هو صاحبُ كتاب **تاريخ الأمم والملوك** .

و في مجالِ الشّعْرِ لا بُدّ لنا أنْ نَسْتَحْضِرَ حرَكَةَ " **الإحْداثِ** " الّتي تَزَعّمها شُعراءُ مِنْ أُصولٍ غَيْرِ عَرَبيّةٍ ، و هُمْ مَنْ يُعْرفونَ **بالشّعراءِ المولّدين**. و نذكُرُ منهم **الحسنَ بنَ هانئ** المعروفَ **بأبي نواس** (تُوفِّيَ سنة **198 هـ** الموافق لـ**813 م**) و**بشّار بن بُرْد** الفارِسيّ الأصل (تُوفِّيَ سنة **167 هـ** الموافق لـ**783 م**) .

لَقَدْ كانَ لاتّصالِ العَرَبِ بِالأمَمِ الأخرى تأثيرٌ كبيرٌ على الحياةِ الفِكريّةِ في العَصْرِ العَبّاسِيّ. فَنَشأ نَوْعٌ مِنَ التّثاقُفِ بين تلك الأمم ، و بينها و بين العربِ. فأصْبَحَ العَرَبِيُّ شديدَ التّعَطُّشِ إلى عُلومِ تلك الشّعوبِ ،وأصبَحَ الّذينَ أسْلَمُوا من هؤلاءِ في حاجةٍ إلى إتْقانِ اللّغةِ العربيّة إمّا بِقَصْدِ إدراكِ تَعاليمِ الدّينِ الإسلامِيّ ، أو لِيَسْهُلَ عليهم بُلوغُ المَناصِبِ العُلْيا أو للمُساهمةِ في الإنتاجِ العِلْمِيّ و الأدبِيّ الّذي شَجّعَ عليه الخُلفاء الّذين عَمِلوا على تَذْكِيةِ التّفاعُلِ بين العربِ و غيرِهِمْ مِن الأمَمِ. و يُذْكَرُ أنّ **هارون الرّشيدَ** (تُوفِّيَ سنة **193 هـ** الموافق لـ**808 م**) الّذي يُعْتَبرُ عَهدُه العَصْرَ الذّهبِيَّ للدّولةِ العربيّةِ الإسلامِيّةِ كانَ يَحْتَفِظُ بِعلاقاتٍ وِدّيّةٍ مع ملك الـرّومِ . و قَدْ أهداهُ اِسطِـرْلابًا (آلةٌ فلكيّة تُسْتَعْمَلُ قديمًا لِرَصْدِ الوقتِ و الأجرامِ السّماويّةِ). و ذكَرَ **ابنُ النّديم** في كِتابِهِ **"أنّ المَأمونَ كانَ بينَهُ و بين مَلِكِ الرّومِ مُراسلاتٌ. و قَدْ اسْتظهرَ عليه المأمونُ فكتَبَ إليه يسألهُ الإذْنَ في إنفاذِ ما يَخْتارُ من العلومِ القديمةِ المخزونَةِ المُدّخرةِ ببلادِ الرّومِ. فأجابهُ إلى ذلك ... فَأخْرَجَ المأمونُ لذلك جماعةً منهم الحَجّاجُ بنُ مَطَر و ابنُ البطريق و غيرُهما. فأخذوا مِمّا وجَدوا و ما اختاروا. فلمّا حملوهُ إليهِ ، أمَرَهُمْ بنَقْلِهِ فَنُقِلَ ."**

ابن النّديم :الفهرست/ص 339

و لَعَلّ تَفاعُلَ العَرَبِ المُسْلمينَ مع غَيرِهِمْ يَبْرُزُ بِوجْهٍ خاصٍّ في حَرَكةِ التّرْجَمةِ. و هي و إنْ لَمْ تَكُنْ وليدَةَ العَصْرِ العبّاسِيّ ، فَإنّهُ يُشْهَدُ لِلْعبّاسيّين بِحُسْنِ تَنظيمِها و غَزارةِ إنتاجِها

2017 Tunisie College.net

وجودَتِهِ. ولَقَدْ كانَتْ هناكَ عَواملُ مَوضوعِيّةٌ شَجّعَتْ الخُلَفاءَ العَبّاسِيّينَ على الاعتناءِ بِحَرَكةِ التّرجَمَةِ وتَطويرِها. مِنْ ذلك تَوفُّرُ العُنْصُرِ البَشَرِيِّ المُتَمَثِّلِ أساسًا في الفُرْسِ الّذينَ أصْبَحَ لَهمْ شَأنٌ مع العبّاسيّين، والجالياتِ الأجنبيّة الّتي تُتْقِنُ العَرَبِيّةَ بالإضافةِ إلى لُغاتِها الأصلِيّةِ. ثمّ وجودُ مراكِزَ قديمةٍ بها مُؤسّساتٌ تعليمِيّةٌ (نَصرانِيّةٌ و ساسانِيّةٌ) بـ**الرُّها** و **قِنَّسرين** (قُرْب الفُرات) و **جنديسابور** (بخوزستان) تَخَرّجَ منها العديدُ من العُلماءِ والمُفكّرينَ. ويُذْكَرُ أنّ أغلَبَ الأطِبّاءِ في العصْرِ العبّاسِيِّ الأوّلِ كانوا منْ **جنديسابور**. وأخيرًا وجود بعضِ الطّوائفِ الّتي تُتْقِنُ اللّغةَ العربيّة مِثْلَ الصّابئة وهم سُكّانُ مدينةِ **حَرّانَ** الّتي بها أهمُّ مدرسةٍ يونانِيّةٍ بالعِراقِ تخرّجَ منها العديدُ منَ العُلماءِ والفلاسِفةِ و المُنَجّمينَ.

اسطرلاب عربيّ

2017
Tunisie College.net

الشّرقُ و الغـربُ ـ من العزلـة إلى التّواصل :

يَرى ابنُ خَلدون أنّ الحضاراتِ مَهْما بلغَتْ شأوًا في التّقدُّمِ و التّحَضُّرِ، فلا بَدّ لها منَ الانحِدارِ ثُمّ الأُفولِ.و هو قانونٌ حَتْمِيٌّ يَسْري على جميعِ الأُممِ و الحضاراتِ.فالحضارةُ العربيّةُ الاسلامِيّةُ بَعْدَما سَطَعَ نَجْمُها و تَوطّدتْ مَعالِمُ نَهْضَتِها بَدَأتْ في التّراجُعِ و الانحِدارِ مُنذُ دُخولِ **هـولاكـو*** بَغْدادَ سنةَ **656** هـ .فَأصْبح يُوسَمُ عَصْرُ ما بعدَ سُقوطِ بَغْدادَ بعَصْرِ الانحِطاطِ الّذي تَخاذَلَ فيه العرَبُ المُسْلِمونَ وأفَلَ نَجْمُهُمْ، وحَلَّ مَحَلَّ النُّهوضِ السّقوطُ و مَحلَّ الرّفعةِ و السِّيادةِ التّخَلُّفُ و التّدنّي. و إلى العَصْرِ الحديثِ لا يَزالونَ يَتَخَبّطونَ عَساهُمْ يَجِدونَ سبيلاً لِلْخَلاصِ بَعْدَما شَهِدوا العالَمَ مِنْ حَولِهِمْ و قَدْ أمْسَكَ بِزِمامِ التّقَدُّمِ و التّطوّرِ و عَزاؤهم أنّهم أدركوا سَقْطتَهم ، و وَعَوْا أسْبابَ تَراجُعِهِمْ خاصّةً بَعدما اتّصَلَ بهِمْ الغرْبُ الّذي بَهَرَ أبصارهم بِوَهَجِ حضارَتِهِ المُشرِقَةِ (صدمة الحداثة) . فراحوا يَلْتَمِسون سُبُلَ خلاصِهِمْ في هذهِ الحضارةِ الوافِدةِ الآخِذةِ في التّقَدُّمِ و التّطَوُّرِ، لأنّ **" المغلوبَ مولَعٌ أبدًا بِالاقْتِداءِ بالغالِبِ ."**

الغـربُ ـ النّهضـة الـواعـدة :

* بـاريس عاصمة النّور :

هكذا قيلَ عن باريسَ ، لا لأنّ أضواءَها تَتَلألأُ كالجَواهِرِ. بَلْ لأنّ نورَ المعرفةِ و الفِكْرِ كانَ يَسْطعُ في أرْجائها .

اِحْتَضَنَتْ باريسُ أعْلامَ الفكرِ الغَرْبيِّ الحديثِ. فَبَعْدَ عُقودٍ مِنَ الجَهْلِ و الخُمولِ ، نَبَغَ في فرنسا أعْلامٌ اعتَنَقوا سُبُلَ الفِكْرِ الحُرِّ المُسْتَنير الّذي يَقْطَعُ مع الفكرِ اللاّهوتيّ و الكَهَنوتيّ المُتَعَصِّبِ. و بَشّرَ هؤلاءِ بالنّهضةِ الحقيقيّةِ. و قامَتْ على أعْتاقِهِمْ الثّوْرةُ الفرنسيّةُ سَنة **1787 م.**

* التّنـوير ثـورة فكريّة باسم العقـل :

حَركةُ التّنْويرِ ظاهِرةٌ ثقافِيّةٌ أوربّيّةٌ نَمَتْ و تَطوّرَتْ في فرنسا و ألمانيا منذُ القَرْنِ السّابعَ عَشَرَ و خلالَ القرنِ الثّامِنَ عَشَرَ حتّى سنةِ **1770**. واجَهَتْ سُلْطَةَ الكنيسةِ و السّلطةَ

---

* **هولاكو خان (1217 - فيفري 1265)** حاكم منغوليّ (مغوليّ)احتلّ مُعظمَ بلاد جنوب غرب آسيا .بعد أن قتل الملايين من أهلها، وتوسّع جيشُه كثيرا بالجزء الجنوبيّ الغربيّ للإمبراطوريّة المنغوليّة، مؤسّسًا سلالة الخانات بفارس، وتوالت السّلالات بعد ذلك إلى أن انتهت إلى إيران الحديثة. وتحت قيادة هولاكو، اجتاح المنغوليّون بغدادَ عاصمةَ الخلافة العبّاسية سنة (**656 هـ = 1258 م**). كما تحوّل المؤرّخون من الكتابة العربيّة إلى الفارسيّة بعهدَه.

2017 Tunisie College.net

السّياسيّةَ المطْلَقَةَ. ونَشَأتْ على شكلِ حركةٍ نَقْدِيّةٍ جِذْرِيّةٍ مِنْ أجْلِ تَحريرِ الإنسانِ وإسْعادِهِ. وقامَتْ على أيدي ثُلّةٍ من المُفكّرينَ الّذينَ عُرِفوا **بـفلاسِفَةِ الأنْوار** أمثالَ **فولتير(1694 - 1778)** و**جون جاك روسّو (1712 - 1778)** و**منتسكيو (1689 - 1755)** و **كانط** وغيرهم. وتَسْتَنِدُ إلى أُسُسٍ ومبادئَ أهمّها : .

- أولويّةُ العقلِ كأداةٍ لِبلوغِ المعرفةِ في كُلِّ المَيادينِ. .

- مقولة الطّبيعةِ البشريّة : الإنسانُ أرقى المَوجوداتِ وأشرَفُها. وهو بِحُكمِ العقلِ الّذي وهَبَتهُ لَهُ الطّبيعةُ قَد اِهْتدى إلى الحياةِ الاجتِماعِيّةِ. وإنّهُ يَتَمتّعُ بِحُقوقٍ طبيعيّةٍ .

- الحُرّيّة : وهي حَقٌّ طبيعيٌّ وشَرْطٌ أساسِيٌّ لِتَحْقيقِ الأنْوارِ. .

- المُساواةُ: وهي شرطٌ لا يُمْكِنُ التّنازُلُ عنهُ أيًّا كانَ الجنْسُ أواللّونُ أو الوضعُ الاجتِماعِيُّ.

ولَئِنْ ظَهرتْ بَوادِرُ التّنويرِ الأولى بأنجلترا وفي ألمانيا خلالَ النّصْفِ الأوّلِ من القرنِ السّابعَ عشَرَ، فقدْ تَبَلْوَرَ في فَرَنسا في ما بين **1720** و**1770**. وقد انتشر في كامِلِ أوربّا لِيَشْمَلَ بروسيا وروسيا واسكندنافيا. ثمّ امتدّ إلى المستعمراتِ خارِجَ أوربّا. .

خُلاصَةُ القَولِ إنّ التّنويرَ بِروحِهِ النّقدِيّةِ المُسْتَنِدةِ إلى العقلِ قد ساهمَ في تَقْويضِ المنظومةِ الفكريّةِ القائمةِ في أوربّا خلال القرنِ الثّامنَ عَشَرَ، وفي البَحْثِ عن أُسُسٍ جَديدةٍ للمُجتمعِ النّاشئِ. وقد كان لأَفْكارِ الفلاسِفةِ لا سِيَمَا الفرنسيّينَ منهم الأثَرُ الفعّالُ في حُصولِ تَحَوّلاتٍ عَميقَةٍ داخِلَ فرنسا وخارجها، لَعَلّ أهمَّها على الإطلاقِ الثّورةُ الفرنسيّةُ .

* **<u>الثّورة الفرنسيّة - مكاسب إنسانيّة خالدة</u> :** .

مَثّلَت المبادئُ الجديدةُ الّتي أرْسَتْها الثّورةُ الفرنسيّةُ وأقَرّتها الجمعيّةُ التّأسيسيّة في **26** أوت من سنة **1789** قطيعةً مع النّظامِ القديمِ والأوضاعِ المُتَولِّدةِ عنه. ولَمْ تَكُنْ هذهِ المبادئُ الّتي تَرَسّخَتْ تَدْريجِيًّا لِتَطْبَعَ الحياةَ العامّةَ بصورةٍ نِهائيّةٍ وعميقةٍ سِوى انْعِكاسٍ واضِحٍ وتجسيمٍ صَريحٍ لِروحِ عَصْرِ التّنْويرِ وأفكارِ فلاسِفَتِهِ. .

1 - <u>حقوق الإنسان</u> : صيغَتْ هذهِ الحقوقُ والمبادئُ في سَبْعَ عشْرَةَ مادّةً تضمّنَها **" الإعلانُ عن حُقوقِ الإنسانِ والمُواطِنِ"** الدّاعي إلى إقْرارِ المُساواةِ المَدَنِيّةِ والحُرّيّةِ الفردِيّةِ وحَقِّ المِلكِيّةِ والسّلامةِ ومُقاوَمَةِ الاستِبْدادِ. وقدْ كانَ هذا الإعلانُ تَجْسيمًا لأفكارِ فلاسِفةِ الأنوارِ الّتي انتشرَتْ لَدى شَرائحَ عديدةٍ من المُجْتَمَعِ. فَتَجاوَزَتْ النّخَبَ المُثَقّفةَ لِتَشْمَلَ غَيْرَها من الأوساطِ. وتَجاوَزَ مدى هذهِ المبادئِ حُدودَ التُّرابِ الفرنسِيِّ لِيَشْمَلَ كامِلَ أوربّا، ثمّ لِيُشِعَّ على العالَمِ.

2017 Tunisie College.net

2 - المُواطنة وإرساء أُسُسِ الدّولة الحديثة : إضافَةً إلى حُقوقِ الإنسانِ ، تَمَحْورَتْ المبادئُ الجديدةُ حول بعضِ المسائلِ المُتّصِلةِ بها والّتي لا تَقِلُّ عنها أهمّيّةً مِثل **المُواطَنةِ والدّولةِ القَوْميّةِ والعقلانيّة**،ثمّ مجموعةِ القِيمِ الّتي أسّسَتْ التّقاليدَ السّياسيّةَ الجديدةَ الّتي تَمَيّزتْ بصِبْغَتِها العالميّةِ .

3 - العقلانيّة وبُروز الإنسان الجديد : ظَهرَتْ ملامِحُ الإنسانِ الجديدِ من خلالِ اعْتِمادِ العَقْلِ والعِلْمِ لِتَصْريفِ شُؤونِهِ.فَتَجاوَزَ بِذلك المَوروثَ مِنَ القِيَمِ والقُيودِ المُكَبّلةِ لِقُدُراتِهِ ، وأصْبَحَ واعِيًا بِدَوْرِهِ الفَعّالِ في الخَلْقِ والإبداعِ وبِمُساهَمَتِهِ المَسْؤولةِ في بناءِ مُستَقْبَلِهِ. فراحَ يَجْتَهِدُ لِتَوْفيرِ سَعادَتِهِ وسَعادةِ الآخرينَ .

*** انتصار المبادئ الجديدة :**

راهَنتْ مَبادِئُ الثّورةِ الفرنسيّة على الإنسانِ دونَ تَمييزٍ في لَونٍ أو عِرقٍ أو جِنْسٍ أو وضْعٍ اجتِماعِيٍّ .وأحَلّتْهُ المَحَلّ الأرْفَعَ .وأقَرّتْ لَهُ حُقوقًا كانَ مَحْرومًا منها . يَقولُ الفيلسوف الألْمانيُّ **هيجل** : **"وهكذا قام الدّستورُ في فرنسا الثّوريّة حول فِكرةِ الحقوقِ . ومنذ ذلك التّاريخِ شكّل هذا المبدأ الأساسِيَّ الّذي ينبني عليه كُلُّ شيءٍ."**

وقد كان لِهذا البُعْدِ الإنسانِيِّ لِمبادئ الثّورةِ تَأثيرٌ عميقٌ في التّحَوُّلاتِ الفِكْرِيّةِ والاجتِماعِيّة والسّياسيّة في أوربّا والعالَمِ. وكانَ له دَوْرُهُ الفَعّالُ في إشْعاعِ تلك المبادِئ على مُخْتَلَفِ أصْقاعِ المَعْمورةِ. وهو ما أسْهمَ في مُراجَعَةِ مُسَلّماتِ الماضي وتَقْويضِ القِيَمِ البائدةِ.

الشّرْقُ - النّهضة المَوْعودة :

وَقَفَ الشّرْقُ على حُدودِ قُوّةِ الغربِ ومَظاهِرِ تَفوُّقِهِ إثْرَ ما يُعْرَفُ بِـ**"صَدْمَةِ الحَداثَةِ"** الّتي اهتَزّتْ لها قناعاتُ الشّرْقِيّين،فباتُوا مُسَلِّمينَ بِتَخَلُّفِهِمْ.لكنّ الأهمَّ هو وَعْيُهُمْ بِأسْبابِ هذا التّخَلُّفِ . ومنْ هُنا كانَ لا بُدَّ منَ البحثِ عنْ سُبُلِ الخلاصِ. وكان منْ ضِمْنِ الحُلولِ المَطْروحَةِ مُحاكاةُ الغَرْبِ وتَمَثُّلُ مَظاهِرِ نَهْضَتِهِ.لِذلِكَ بادَرَ الشّرْقِيّونَ إلى الاتّصالِ بالغَرْبِ منْ خِلالِ ما يُعْرَفُ بالإرْساليّاتِ التّعليميّةِ والزّياراتِ الّتي تَهدِفُ إلى رَصْدِ مَظاهِرِ التّحَضُّرِ الّذي بَلَغَتْهُ الأمَمُ الغربيّةُ. وما كِتاباتُ بعضِ الأعْلامِ إلاّ نَقْلٌ أمينٌ لِما وَقَعَتْ عليهِ أعْيُنُ أصْحابِها المُنْبَهرينَ مِنْ أمثالِ **رَفاعة رافع الطّهطاوي*** و **محمّد بَيْرَم الخامس*** صاحِبِ كتاب **صَفْوة الاعتِبار** و **خير الدّين التّونسيّ***.وقَدْ تَضَمّنَ وصْفُ هؤلاءِ دَعَواتٍ صَريحَةً أحْيانًا وضِمْنِيّةً أحْيانًا أخْرى إلى الأخْذِ عن الغربِ سُبُلَ نَهْضَتِهِمْ.

2017 Tunisie College.net

وسَنَقِفُ عنْدَ بَعْضِ هذهِ الدّعَواتِ :

* إصلاحات محمّد علي باشا في مصر :

كانَ **محمّد علي باشا** * ضابطًا في الجيش العُثمانيّ. جاء إلى مِصْرَ لِطَرْدِ جيش **نابليون** الّذي وَفَد إليها سنةَ **1798**. ثمّ أصبَح قائدا للجيش في مصرَ إلى أن عَيّنَهُ السّلطانُ العُثمانيّ واليًا عليها سنة **1805**. لكنّ طُموحَهُ لم يَقِفْ عند هذا الحدّ، بلْ تَعاظَمَ وامتدّ لِيُؤسِّسَ دولةً مُستقِلّةً. فَحَوّلَ مِصْرَ من ولايةٍ خاضِعةٍ للسّلطةِ المركزيّةِ في **الآسِتانةِ** (عاصمة السّلطنة العثمانيّة) إلى دولةٍ مُسْتقِلّةٍ عَصْرِيّةٍ بِفَضْلِ ما حَقّقَهُ منْ برامِجَ إصْلاحِيّةٍ اِقْتِصادِيّةٍ وإدارِيّةٍ وثقافِيّةٍ، إلى جانِبِ تكوينِ قُوّةٍ عَسْكرِيّةٍ عَتيدةٍ. وقدْ كان المرتكز الأساسيّ لهذه الإصلاحات الإصلاح في مجالِ التّعليمِ،لأنّ **محمّد علي**

---

* **رفاعة رافع الطّهطاوي** : (**1216** هـ - **1290** هـ // **1801** م - **1873**) من قادة النّهضة العلميّة في مصر في عهد **محمد علي باشا**. وُلد رفاعة رافع الطّهطاوي في **15** أكتوبر **1801**، بمدينة **طهطا** إحدى مدن محافظة **سوهاج** بصعيد مصر، يتّصل نسبه بالحُسين السّبط.نشأ في عائلة ملحوظة من القضاة ورجال الدّين . فلقي رفاعة عناية من أبيه، فحفظ القرآن الكريم، وبعد وفاة والده رجع إلى موطنه طهطا، و وجد من أخواله اهتماماً كبيراً حيث كانت زاخرة بالشّيوخ والعلماء فحفظ على أيديهم المُتون التي كانت متداولة في هذا العصر، وقرأ عليهم شيئا من الفقه والنّحو. التحق **رفاعة** وهو في السّادسة عشرة من عمره بالأزهر في عام **1817** وشملت دراسته في الأزهر الحديث والفقه والتّفسير والنّحو والصّرف، وغير ذلك. خدم بعدها كإمام في الجيش النّظامي الجديد عام **1824**.

---

* **محمد بيرم الخامس بن مصطفى بن محمد الثالث** (من بني بيرم) عالم رحّالة مؤرّخ من علماء تونس، وُلد في مارس **1840** م // **1256** هـ بمدينة تونس وتوفي بحُلوان(مصر)في ديسمبر **1889** م// **1307** هـ.أشرف محمد بيرم الخامس خلال وزارة **خير الدين باشا** على جمعيّة الأحباس منذ عام **1874**، وساهم في تنظيم التّعليم بالمدرسة الصّادقية عند تأسيسها عام **1875**، وفي إصلاح التّعليم بجامع **الزّيتونة**، وفي إصلاح المحاكم الشّرعية مستعينا بالعارفين لقواعد الفقه والاجتهاد. كلّفه **خير الدين باشا** عام **1875** أيضا بإدارة المطبعة الرّسمية وجريدة **الرّائد** النّاطقة بلسان الحكومة الإصلاحية.سافر إلى أوروبا، ولمّا استولى الفرنسيّون على تونس هجر بلاده متّجها إلى **الآستانة** ومكث فيها فترة من الزّمن حتّى توجّه إلى مصر عام **1302** هـ. وهناك أنشأ جريدة « **الإعـلام** »(أو « **الإعلام بحوادث الأيّام ومقتضى المقام بعلوم الإسلام ونصائح الأنام** ») منذ عام **1885** ،وهي الّتي استمرّت نحو أربعة أعوام، وتوقّفت عن الصّدور بتولّيه منصبَ القضاء في محكمة مصر الابتدائية الأهليّة.

---

* **محمد علي باشا المسعود بن إبراهيم آغا القوللي** الملقّب **بـ" العزيز"** أو **"عزيز مصر"** (4 مارس **1769** - **2** أوت **1849**) ، هو ومؤسّس الأسرة العلويّة وحاكم مصر ما بين عامي **1805** و **1848**، ويَشيع وصفه بأنّه "مؤسّس مصر الحديثة " وهي مقولة كان هو نفسه أوّلَ من روّج لها واستمرّت بعده بشكل منظّم ومُلفِت . استطاع أن يَعْتليَ عرش مصر عام **1805** بعد أن بايعه أعيان البلاد ليكون واليًا عليها، بعد أن ثار الشّعب على سلفه **خورشيد باشا**، ومكّنه ذكاؤه واستغلاله للظّروف المحيطة به من أن يستمرّ في حكم مصر لكلّ تلك الفترة، ليكسِرَ بذلك العادة العثمانية التي كانت لا تترك واليًا على مصر لأكثر من عامين.

2017
TunisieCollege.net

كان يُدْرِكُ أنّ الهُوّةَ باتَتْ عميقَةً بين ما كان يُلْقَى مِنْ دُروسٍ في **الجامِعِ الأزهر**[*] و ما تَتَطَلّبُهُ حاجاتُ الدّولةِ الحديثةِ. لهذا تَرَكَ التّعليمَ الدّينيَّ جانِبًا، وأنْشَأَ إلى جانِبِهِ تَعليمًا عَصْرِيًّا يَعْتَمِدُ بَرامِجَ و مَناهِجَ حَديثةً على النّمطِ الأوربّي .فَبَعَثَ مَدارِسَ ابتِدائيّةً و ثانويّةً و مَعاهِدَ عُلْيا مُتَخَصِّصَةً في الطّبِّ و الصّيْدَلَةِ و الزّراعَةِ و المُحاسَبَةِ و الهنْدَسَةِ و اللُّغاتِ. و اعتمد في ذلكَ الأساتِذَةَ الأجانِبَ. و ساهمتْ دارُ الطّباعةِ الّتي أسّسها **محمّد علي** عام **1822** في طِباعَةِ الكُتُبِ و نَشْرِها. كما ظهرتْ عام **1828** أوّلُ جريدةٍ بِمِصْرَ تحت عنوان **"الوقائع المصريّة"**. و بذلك انعقدتْ الصّلةُ بين الثّقافتَيْن الأوربّيّة و العربيّة ، بل أصْبَحَتْ الثّقافةُ الغرْبيّةُ قَويّةَ الأثرِ في تَفْكيرِ المِصْرِيّين و حَياتِهم الاجتِماعِيّةِ لا سِيَـما بَعْدَ أنْ أرْسَلَ **محمّد علي باشا** عَدَدًا من الطُّلاّبِ للدّراسةِ في أوربّا. و منْ بينِ هؤلاء **رفاعة رافع الطّهطاوي.**

* **<u>رفاعة رافع الطّهطاوي رائد النّهضة العربيّة الحديثة</u> :**

يقولُ الطّهطاوي في كتابِهِ **"تخليص الإبريز في تلخيص باريس"** مُتحدّثًا عنْ رِحْلَتِهِ إلى باريس و الهدفِ منها :" **يقولُ العبدُ الفقيرُ إلى إمْدادِ سَيّدِه و مَوْلاه ... رفاعةُ ابنُ المرحومِ السّيّد بدوي رافع الطّهطاوي : لَمّا مَنَّ الله سبحانه و تعالى عليَّ بالجامِعِ الأزهَرِ... و حَصَلْتُ على ما يَسَّرَ بهِ عَلَيَّ الفَتّاحُ مِمّا يُخْرِجُ به الإنسانَ من الظّلامِ و يَمْتازُ بِهِ عنْ مَرتَبَةِ العَوامِّ ... سَهّلَ لي الدُّخولَ في خِدْمَةِ صاحِبِ السّعادةِ (محمّد علي) أوّلاً في وظيفةِ واعظٍ في العساكِرِ الجهادِيّةِ. ثمّ إلى رُتْبَةِ في باريس صُحْبَةَ الأفندِيّةِ المَبْعوثينَ لِتَعَلُّمِ العُلومِ و الفُنونِ الموجودَةِ بهذِهِ المدينةِ البَهيّةِ. فَلَمّا رُسِمَ اسمي في جُمْلةِ المُسافرينَ، و عَزَمْتُ على التّوجُّهِ، أشارَ عَلَيّ بَعْضُ الأقارِبِ و المُحَبّبينَ أنْ أنَبّهَ على ما يَقَعُ في هذهِ السَّفْرةِ و على ما أراهُ و ما أُصادِفُهُ من الأُمورِ الغريبةِ و الأشياءِ العجيبةِ ، و أنْ أُقَيِّدَهُ لِيَكونَ نافِعًا في كَشْفِ القِناعِ عن مُحَيَّا هذهِ البِقاعِ**

---

[*] **الجامع الأزهر : (359 هـ - 361 هـ // 970 م - 972 م)** هو من أهمّ المساجد في مصر وأشهرها في العالم الإسلاميّ.وهو جامع وجامعة منذ أكثر من ألف سنة، وقد أُنشئ على يد جوهر الصّقلّيّ عندما تمّ فتح القاهرة **970** م، بأمرٍ من المعزّ لدين الله أوّلِ الخلفاء الفاطميّين بمصر، وبعدما أسّس مدينة القاهرة شرع في إنشاء الجامع الأزهر، ووضع الخليفة المعزّ لدين الله حجر أساسِ الجامع الأزهر في **14** رمضان من سنة **359 هـ //970** م ، وأتمّ بناء المسجد في شهر رمضان سنة **361 هـ// 972** م، فهو بذلك أوّلُ جامع أنشئ في مدينة القاهرة؛ المدينة الّتي اكتسبت لقب **مدينة الألف مئذنة**، ويعتبر المسجد ثانيَ أقدم جامعة قائمة بشكل مستمرٍّ في العالم بعد جامعة القرويّين .وقد اعتبرت جامعة الأزهر الأولى في العالم الإسلاميّ لدراسة المذهب السّنّيّ و الشّريعة، أو القانون الإسلاميّ.

2017
Tunisie College.net

الّتي يُقالُ فيه عرائس الأقْطارِ، ولِيبْقى دليلاً يَهتَدي بهِ إلى السّفَرِ طُلاّبُ الأسْفارِ."

ر. ر الطّهطاوي - تخليص الإبريز/ص 2 - 3

واضِحٌ مِمّا تَقَدّمَ تَأثُّرُ الطّهطاوي البالِغُ بالحضارةِ الفرنسيّة.فحاوَلَ أنْ يَنْقُلَ صورةً منها إلى مِصْرَ عساها تَكونُ مُنْطَلَقًا للنّهضةِ والتّحديثِ .

لقَدْ ظَهَرَتْ أفكارُ الطّهطاوي الإصلاحيّةُ في مُؤلّفاتِهِ مثل"**تعريب القانون المدنيّ الفرنسيّ**" و"**المرشد الأمين في تعليم البنات و البنين**" وبوجهٍ أخصّ في كتابهِ "**تخليص الإبريز في تلخيص باريس**". ولَقد انبنى الفكر الإصلاحيّ عندهُ على مبادئ ثلاثةٍ :

1 - تَنبيه العالَمِ العربيّ الإسلاميّ إلى ضرورةِ إرْساءِ نِظامٍ سِياسِيٍّ عادِلٍ وديمقراطِيّ يَحْفَظُ حُقوقَ الرّعايا بالتّسْويةِ في الأحْكامِ والحُرّيّةِ وصِيانةِ النّفْسِ والمالِ والعِرْضِ. وهي المَبادئُ الرّئيسيّةُ الّتي جاءتْ بها الثّورةُ الفرنسيّةُ.

2 - فتحُ المدارِسِ والمعاهدِ أمامَ أفرادِ الشّعبِ لأنّها السّبيلُ إلى تكوين نُخْبَةٍ وطنيّةٍ ومُثقّفةٍ تتسَلّحُ بالعِلْمِ وباللّغاتِ الأجنبيّةِ الّتي تُمكّنُهُمْ منَ الاطّلاع على مُختَلَفِ الثّقافاتِ وهَضْمِها.

3 - يرى الطّهطاوي أنّهُ لا وُجودَ لاخْتِلافٍ كبيرٍ بين مبادئِ الشّرْعِ الإسلاميِّ والمَبادِئِ الخاصّةِ بالقانونِ الطّبيعيِّ الّتي أُقيمَتْ بِمُقْتَضاها دساتيرُ أوربّا الحديثةِ.

* **<u>إصلاحات خير الدّين</u> :**

يرى بَعْضُ الدّارسينَ أنّ **أحمد باشا باي**[*] **(1837 - 1855)** هو واضِعُ تونسَ على سِكّةِ الحداثةِ.فقد بادَرَ بتحْديثِ الأنظمةِ الإداريّة والعسكريّة ونِظامِ التّعليمِ فَضْلاً عنْ قِيامِهِ ببَعْضِ الإصلاحاتِ الاقْتِصادِيّةِ والاجْتِماعِيّةِ.

ويُعْزى هذا الانخِراطُ في سِلكِ الحداثةِ أساسًا إلى تَأثُّرِ **أحمد باشا باي** بإصْلاحاتِ **محمّد علي** في مِصْرَ،ووُجودِ نُخْبَةٍ من المُصْلِحينَ في دواليبِ الحُكْمِ قَدْ تَأثّرَتْ بمبادئِ الثّورةِ الفرنسيّةِ واعْتَنَقَتْ أفكارَ عَصْرِ الأنوارِ. فَدَعَتْ إلى الإصْلاح وانخرَطَتْ في هذا المَشْروع لإخْراج البلادِ التّونسيّةِ مِنْ أزْمَتِها والحِفاظِ على سِيادَتِها في آنٍ . وكانَ مِنْ ضِمْنِ هؤلاء **خيْرُ الدّين باشا**[*].

لَقَدْ تَسَنّى لِخَيْرِ الدّين زيارَةَ عَددٍ من الدُّولِ الأوربّيّةِ بِحُكْمِ وظائفِهِ ومَهامِّهِ.فقدْ رافقَ **أحمد باشا باي** في زيارتِهِ لِفرنسا أواخِرَ سنة **1846** . ثمّ أقامَ بها لِمُدّةِ أربعِ سنواتٍ

---

[*] **أحمد باشا باي :** هو أحمد بن مصطفى باي، عاشِرِ البايات الحُسَيْنيّين بتونس، تولّى حكم البلاد سنة **1837 م**، وقام في فترة حكمه الّتي انتهت سنة **1855 م** ، بالعديد من الإصلاحات في المجال العسكريّ والاجتماعيّ والّتي كانت تعكِس مدى تأثّره بما لاحظ بفرنسا من تقدّم وازدهار إثر زيارته لها سنة **1846 م**.

2017 Tunisie College.net

(1853 - 1857). وفي ما بين سَنَتَيْ 1863 و1867 قام بِعِدّةِ سِفاراتٍ لِكُلٍّ مِنْ ألمانيا وبريطانيا والسّويد وبلجيكا وهولندا والدّانمارك . وقد انبهرَ بالنّهضةِ الّتي عرفتها أوربّا الغربيّة في القرنِ التّاسعَ عشرَ.كما انْبهر بالنّظامِ السّياسيّ الفرنسيّ واطّلعَ عنْ كَثَبٍ على أفكارِ فلاسِفةِ التّنويرِ ومُؤلّفاتِهِمْ. وقدْ دَوّنَ خيرُ الدّين آراءَهُ الإصلاحِيّةَ في كِتابِهِ " **أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك** " الّذي صدر سنة **1867**. وفيه يُصَرِّحُ بِتَأثُّرِهِ البالِغِ بِمُسْتوى التّحضُّرِ الّذي بلغَتْهُ الأمَمُ الأوربّيّةُ ، عاقِدًا العزمَ على اقْتِباسِ ما مِنْ شأنِهِ أنْ ينهضَ بالبلادِ التّونسيّةِ ويُخْرِجَها مِنْ أزمَتِها. يقول :

"... وذِكْرُ ما تَتَأكّدُ مَعْرِفَتُهُ مِنْ أحْوالِ الأُمَمِ الإفرنجِيّةِ خُصوصًا مَنْ لَهُمْ بنا مَزيدُ اختلاطٍ وشديدُ علقةٍ وارتباطٍ ... فَجمعتُ ما تَيَسّرَ بِعَوْنِ اللّه مِنْ مُستَحْدثاتِهِمْ المُتعلّقةِ بِسِياسَتَيْ الاقتِصادِ والتّنظيم ، وبيان الوسائلِ الّتي طرقوا بها في سياسةِ العِبادِ على الغايةِ القُصْوى في عِمْرانِ البلادِ ...والغَرض منْ ذكرِ الوسائلِ الّتي أوْصَلتْ الممالِكَ الأوربّاوِيّةَ إلى ما هي عليه منَ المِنْعَةِ والسّلْطَةِ الدّنيويّةِ أنْ نَتَخَيّرَ منها ما يكونُ بِحالِنا لائقًا ولِنُصوصِ شريعَتِنا مُساعِدًا ومُوافِقًا عسى أنْ نَسْترْجِعَ مِنْهُ ما أُخِذَ مِنْ أيْدينا ، ونخرج باستِعْمالِهِ مِنْ ورطاتِ الموجودِ فينا... وملاكُ ذلك كُلّهِ الأمْنُ و العَدْلُ اللّذانِ صارا طَبيعةً في بُلْدانِهِمْ ..."

خير الدّين التّونسيّ : أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك

ولَقَدْ تَركّزتْ إصلاحاتُ خير الدّين على المحاورِ التّاليةِ :

1 - الفكر السّياسيّ : جوازُ الاقتِباسِ عن الغربِ ودون تقليدٍ لما يوجَدُ في أوربّا مِنْ مُؤسّساتٍ سياسيّةٍ مبنيّةٍ على العدلِ والحرّيّةِ وفي حُدودِ ما تَسْمحُ بهِ الشّريعةُ الإسلاميّةُ.

2 - الإصلاح الإداريّ والاقتصاديّ والاجتماعيّ .

✡ **خير الدّين التّونسيّ** : ولد خير الدّين باشا سنة **1822**، وهو من أصل جركسي (أصله يعود إلى الجراكسة وهي منطقة القوقاز بآسيا)، وقد نشأ بالقسطنطينيّة (وهي اسطنبول عاصمة الدولة العثمانية)ثمّ شبّ في تونس بقصر أحمد باشا، وتمكّن من تحصيل الفنون العسكرية والسياسية والتاريخ... وتعلم اللّغة الفرنسيّة. وفي سنة **1867** قام بتأليف كتابه المشهور " أقْوَمُ المسالك في معرفة أحوال الممالك " .

*تولى خير الدّين باشا عدّة مناصب هامة في حياته، فقد تمّ تعيينه وزيرا للبحر سنة **1857**، وأصبح رئيسا للمجلس الأكبر سنة **1861**، ثمّ عُيّن رئيسا للكومسيون المالي سنة **1869**، وتولّى منصب وزير أكبر من **1873** إلى **1877** بعد رحلته صحبة أحمد باي إلى فرنسا سنة **1846**، انبهر خير الدّين باشا بالمستوى العال للحضارة الأوروبيّة، وبما وصل إليه الغرب من علوم وتقدّم، وأرجع ذلك إلى التّنظيمات السّياسيّة العادلة ودلك ما دفعه إلى الدّعوة إلى الأخذ ببعض المعارف. توفي خير الدّين باشا سنة **1890** .

2017 Tunisie College.net

3- تحديث أساليب التّربية والتّعليم: لَقد انبهر خيرُ الدّين بالتّعليم الأوربّيّ وخاصّة الفرنسيّ. كما كان يُؤمِنُ بأنّ الخروجَ من الانحطاطِ وتَحْديثَ الدّولةِ التّونسيّة لا يتأتّى إلاّ بتحديث التّعليمِ بها على مستوى البرامِجِ وطُرُقِ التّدريس.

مِنَ الواضِح إذَنْ أنّ الحضارةَ الأوربّيّة وخاصّة الحضارة الفرنسيّة قَدْ ألقَتْ بِكُلّ ثِقَلِها في فِكرِ رُوّادِ الإصْلاح المَشارِقةِ. وهُمْ لا يُخْفونَ تَأثُّرَهُمْ بهذهِ الحضارةِ السّاطِعةِ أضواؤُها. بَلْ دَعَوْا دونما حَرَج إلى الاقتِباس عنهم. بلْ إنّ ذلك لَضَرورةٌ مُلِحّةٌ للخُروج مِنْ مَهاوي الانحِطاطِ. وهو ما يُؤكِّدُ أنّ التّفاعُلَ بين الأممِ والشّعوبِ حاصِلٌ لا محالةَ بالقُوّةِ وبالفِعْلِ. وليسَ لنا أنْ نُنْكِرَهُ أوْ نُغْفِلَهُ. فَكما أثّرَت الحضارةُ العربيّةُ الإسلامِيّةُ في غيرِها من الأمَمِ قديمًا، فها هي اليوْمَ تَتَأثّرُ بِقِيَمِ الحضارةِ الغَرْبيّةِ ومُنْجزاتِها. وهو ما يَعْني أنّ قانونَ **التّأثير والتّأثّرِ** قانونٌ حَتْمِيٌّ مُلْزِمٌ لِكافّةِ الثّقافاتِ والحضاراتِ.

<u>المرأة بين عبوديّة الشّرق وحرّيّة الغرب:</u>

بَدَأت النّقاشاتُ حول المرأةِ ودَورها ووضْعها منذ القرن التّاسعَ عَشَرَ ضِمْن الموضوع الأشْملِ وهو **إصْلاح المُجتمع** ككُلٍّ مِنْ أجْلِ النّهوضِ بالعالَمِ الإسلامِيّ. وكان مَشاهيرُ المُصْلحين المُسلمين في القرنِ التّاسعَ عشَرَ يَعْتَقِدون أنّ التّقاليدَ الإسلامِيّةَ قدْ لَحِقَها الفَسادُ بِمُرورِ الزّمَنِ، وأنّ فَهْمًا حقيقيًّا لِرِسالةِ الإسلامِ مِنْ شَأنِهِ أنْ يُوَفِّقَ بينَ مُتَطلّباتِ العصرِ الحديثِ و مَبادئِ الإيمانِ.

إنّ هذا التّوفيقَ سَيَجْعَلُ من المُسْلمينَ جُزْءًا مِنَ العالَمِ الحديثِ دونَ أنْ يَتخَلّوْا عَنْ هَويّتِهِمْ وأصالَتِهِمْ. ومع نِهايةِ القرنِ التّاسعَ عَشَرَ وبدايةِ القرنِ العِشرينَ، وجَدَ العالَمُ العربيُّ والإسلامِيُّ نفسَهُ فريسةً سَهْلةً لِمطامِعِ الاستعمارِ الأوربّيّ، وبالتّالي لِتأثيرِهِ الحَضاريّ. عِنْدَها، أصْبَحتْ الحاجةُ إلى الإصْلاح أكثَرَ إلْحاحًا مِنْ أيّ وَقْتٍ مَضى. وبدا واضِحًا لِلْمُفَكّرينَ المُسلمينَ المُتَحرّرينَ أنّ مِفتاحَ الحلّ في مسألةِ الإصلاح الاجتماعِيّ يكْمُنُ في حلّ وَضْع المرْأةِ. كما كان واضِحًا أنّ الإبقاءَ على وضع المرأةِ كما هو عليه يُعدُّ الحائلَ دونَ إحْداثِ أيّ تَغْييرٍ.

لقدْ كان **الطّهطاوي** أوّل مَنْ نادى بِتَعْليمِ المرأةِ. وبذلك أثارَ النّقاشَ حَولَ شَرْعِيّةِ تعليمِها ومنْ ثَمّةَ عَمَلِها وخُروجِها وسُفورِها (**<u>السُّفور</u> يعني التّخلّي عن الحجابِ**) وقد تابع هذه المُناقشاتِ **محمّد عبده**[*] ثمّ جاء تلْميذهُ **قاسم أمين** وكتب كتابَهُ "**تحرير المرأة**"

---

[*] **محمد عبده** (**1266 هـ - 1323 هـ // 1849 م - 1905 م**) عالم دين وفقيه ومجدّد إسلاميّ مصريّ، يُعَدُّ أحدَ رموز التّجديد في الفقه الإسلاميّ ومن دُعاة النّهضة والإصلاح في العالم العربيّ والإسلاميّ، ساهم بعد التقائه بأستاذه **جمال الدّين الأفغانيّ** في إنشاء حركة فكريّة تجديديّة إسلاميّة في أواخرِ القرنِ التّاسعَ عشَرَ و بدايات

2017 Tunisie College.net

سنة **1899**. واعْتُبِرَ هذا التّاريخُ بدايةَ إطلاقِ الدّعوةِ لِتَحْريرِ المَرأةِ رَسمِيًّا في العالَمِ العربيِّ. ثمّ ألّفَ كتابَ "**المرأة الجديدة**" سنة **1900**. وفي سنةِ **1930** كَتَبَ **الطّاهر الحدّاد** كتابه "**امرأتنا في الشّريعة والمجتمع**". وكان من أثرِ هذهِ الدّعواتِ لِتَحْريرِ المرأةِ أنْ تَنَبّهتْ بَعْضُ النّساءِ العرَبيّاتِ إلى وَضْعِ المَرأةِ. ونَذْكُرُ منهُنّ "**ملك حُفني ناصف**" المُلقّبةَ بـ**باحثة البادية** (**1886 - 1918**) و"**مَيْ زيادة**" (**1886-1941**) و"**هدى شعراوي**" (**1879-1947**). وقدْ لَخّصَتْ **ملك حُفني ناصف** مَطالِبَ المَرأةِ بِقَولِها: "***أُريدُ مِمّا كَتَبْتُ أوْ أَكْتُبُ للجَريدةِ بِعُنوانِ النّسائيّاتِ تَخْفيفَ وَيْلاتِ الزّواجِ على قَدْرِ الإمكانِ.***"

الفكر العربيّ

لَقَدْ حَرِصَ مُحَرِّرُو المرأةِ منْ أمثالِ **قاسم أمين**✲ و**الطّاهر الحدّاد**✲ على الرّبطِ بين مَسْألَتَيْ المرأةِ والإصلاحِ الاجتماعِيِّ. يقولُ **الطّاهر الحدّاد**: "**نهوض المرأةِ هو نُهوضُنا جميعًا**". وكانَ دافِعهم إلى ذلك وَعيهم أنّهم وإنْ كانوا يَطْرُقونَ بابًا مِنْ أبوابِ الإصلاحِ،فإنّهم يَطْرُقونَ أهمّ هذه الأبوابِ.لذلك رَكّزوا كُلّ جُهودِهِمْ لإثارةِ مَسْألةِ المرأةِ في تَعالُقِها مع مَشروعِ النّهضةِ واتّصالِها الوثيقِ بهِ. ولإثْباتِ هذا التّلازُمِ قَدّموا أمثلةً من التّاريخِ والواقعِ.ف**قاسم أمين** مثلاً يُفَسِّرُ هَيْمَنَةَ الإسلامِ في عَصْرِهِ الذّهَبِيِّ بانْتِشارِ العِلْمِ بين الرّجالِ والنّساءِ كما هو الحالُ في أوربّا الحديثةِ. وبالنّتيجةِ، كان انحِطاطُ المُسلمينَ راجِعًا إلى انحِطاطِ العقلِ. والعِلّةُ الأولى في ذلك إهمالُ التّربيةِ في الرّجالِ والنّساءِ خاصّةً.كما يُفَسِّرُ انتِشارَ الرّذيلةِ في المجتمعِ المِصْرِيِّ بِبِطالةِ النّساءِ. أمّا **الحدّادُ**، فَيَرْبِطُ رَبْطًا وَثيقًا بين بُؤْسِ العائلةِ وبُؤْسِ المُجْتَمَعِ، ويَعْزو هذا البُؤسَ إلى وضعِ المرأةِ الرّديءِ.وبذلك يُقَرِّرُ أنّ تَعليمَ المرأةِ يَعودُ بالنّفْعِ على المُجتَمَعِ بِأسْرِهِ.

القرن العشرين تهدف إلى القضاء على الجمود الفكريّ والحضاريّ و إعادة إحياء الأمّة الإسلاميّة لتواكب متطلّبات العصر

✲ **قاسم محمد أمين** (**1280 هـ - 1326 هـ // 1 ديسمبر 1863 م - 23 أفريل 1908 م**) كاتب وأديب ومصلح اجتماعيّ مصريّ وأحد مؤسّسي الحركة الوطنيّة في مصر وجامعة القاهرة كما يُعدُّ رائد حركة تحرير المرأة.

✲ **الطاهر بن علي بن بلقاسم الحدّاد** (**1317 هـ - 1353 هـ // 1899 م - 1935 م**) هو من مواليد **4** ديسمبر **1899** وتوفّي في **7** ديسمبر **1935**، هو مفكّر،نقابيّ وسياسيّ تونسيّ. قام بحملة لتطوير المجتمع التّونسيّ في مطلع القرن العشرين. ومن المعروف أنّه خاض نشاطًا من أجل حقوق العمّال التّونسيّين، وتحرير المرأة التّونسيّة ومنع تعدّد الزّوجات في العالم المسلم.

فهي " ***الّتي تَلِدُ الشّعْبَ وفي أحْضانِها يَنمو، وفيها الأملُ الأوّلُ في إعدادِهِ للحَياةِ والواجِبِ .***".

لقدْ أكّدَ هؤلاء أنّ للمرأةِ وظيفةً يَتوقّفُ عليها حالُ المُجتمعِ. وهي وظيفةُ إنجابِ الرّجالِ وتَرْبيتِهم وإعدادِهم الإعدادَ الجَيّدَ للحياةِ. ولا يُمكِنُ للمرأةِ أنْ تُؤَدِّيَ هذه الوظيفةَ ما لَمْ يُنْصِفْها المُجْتَمَعُ بِأنْ يُعْطِيَها حُقوقَها وفي صَدارَتِها حَقّها في التّربيةِ والتّعليمِ.

لَقَدْ اسْتفادَ دُعاةُ تَحْريرِ المرأةِ استِفادةً كبيرةً مِنْ مُنْجزاتِ الحضارةِ الغَرْبيّةِ وفِكْرِ أعْلامِها المُسْتَنيرِ الّذي تَرْجَمَتْهُ مبادئُ الثّورةِ الفرنسيّةِ وخاصّةً إعلان حقوق الإنسان والمُواطنةِ. كما وَجَدَ المُفكّرونَ العَرَبُ أنْفُسَهُمْ في مُواجهةِ تَحَدٍّ صَعْبٍ عَقِبَ تَعاظُمِ المَدِّ الاسْتِعماريِّ الأوربّيِّ الّذي تَغَلْغلَ في أغْلَبِ الأقْطارِ العربيّةِ خلالَ القرنِ التّاسِعَ عَشَرَ وبداية القرنِ العِشْرين. وهو ما بَصّرَهُمْ بِضرورةِ الإصلاحِ الشّامِلِ للخُروجِ منْ مَهاوي التّردّي والانحِطاطِ ومُواجهةِ التّحدّياتِ. وأُولى مفاتيحِ هذا الإصلاحِ تحريرُ المرأةِ و مُعالجةُ وضعِها الرّديءِ.

2017 Tunisie College.net

الشّعر الحديث مرآة عاكسة للتّفاعل مع ثقافة الآخر :

شَهِدَ الشّعْرُ العربيُّ مُنْتَصَفَ القرنِ العِشرينَ نَوْعًا مِنَ الانعِطافِ عَصَفَ بِبِنْيَتِهِ المُتعارفةِ. لَقَدْ انفَجَرَ الشّكلُ الشِّعْرِيُّ القديمُ الّذي ظلّ جامِدًا طيلةَ أرْبَعةَ عَشَرَ قَرْنًا. وتأسّسَ بَدَلَهُ مَفْهومٌ جَديدٌ لِلشّعْرِ. وانْبَنَى التّأسيسُ على إعادةِ النّظَرِ في الصّرْحِ الثّقافيّ العربيّ انطِلاقًا من الجذورِ. في هذه المرحلةِ، اضطلعَ الشِّعْرُ الغَرْبِيُّ بِدورِ النّموذجِ الّذي اسْتَنَدَتْ إليهِ أغلبُ الكتاباتِ العَرَبيّةِ لِتَحْتَذِيَهُ وتُحاكيَهُ. فَمُنْذُ عَصْرِ النّهضَةِ، والغَرْبُ الأوربّيُّ حاضِرٌ في وعيِ الذّاتِ العربيّةِ. ولَمْ تكنْ بِضاعةُ الغربِ مُجَرّدَ آلاتٍ ومُنْتجاتٍ صِناعِيّةٍ، بلْ إنّ تلك البِضاعةَ لَمْ تَكُنْ سِوى الوجْهِ الخارجِيِّ لِقِيَمِ الغرْبِ وثقافَتِهِ وحضارَتِهِ الّتي خَلْخَلَتْ مُجْمَلَ القِيَمِ والمَفاهيمِ العربيّةِ. لذلك تبدو هذه المحاولاتُ التّحديثيّةُ مشغولةً بِهذا الغَرْبِ.

لَقَدْ جَسَّدَ الشّعْرُ العربيُّ هذا التّأثُّرَ بِقِيمِ الحَضارةِ الغرْبيّةِ بِصورةٍ واضِحَةٍ وجَلِيّةٍ. وبَرَزَ ذلك خاصّةً في إنتاجِ الشُّعراءِ الرّومنطيقيّينَ الّذين انبَهروا بالشّعراءِ الغَرْبِيّين حَدَّ الانْصِهارِ والذّوبانِ. فَـ**جبْران خليل جبران*** بلغَ إعجابُهُ بالشّاعرِ الأنجليزيّ **ويليام بلايك*** **WILIAM BLAKE (1757 - 1827)** حُدودَهُ القُصْوى، فصارَ يَعتَقِدُ أنّ رُوحَ **بلايك** قَدْ سَكَنَتْهُ. يقول: **"أتكونُ روحُهُ قد عادتْ إلى الأرض لِتَسْكُنَ جَسَدي؟"**

ميخائيل نعيمة : جبران خليل جبران - حياته وأعماله

أمّا **أبو القاسم الشّابّيُّ** فقد انتقدَ بِشِدّةٍ الإنتاجَ الإبداعِيَّ العربيَّ القديمَ. ورَأى أنّ الشّعْرَ العربيَّ يَفْتقِرُ إلى الخيالِ الإبداعِيِّ. وهو بهذا يُلْغي الشّعرَ القديمَ ويُنادي بتَجاوُزِهِ والثّورةِ

---

* **جبران خليل جبران :** شاعر وكاتب ورسّام لبنانيّ من أدباء المهجر وشعرائه. هاجر ولدفي **6** يناير **1883** في بلدة بشري شمال لبنان حين كانت تابعة لمتصرفية جبل لبنان العثمانية.. هاجر وهو صغير مع أمه إلى الولايات المتّحدة الأمريكيّة،وحصل على جنسيتها عام **1895** .و هناك درس الفن وبدأ مشواره الأدبي. اشتهر عند العالم الغربي بكتابه "النبي "الذي تم نشره سنة **1923** . توفّي في نيويورك **10** ابريل **1931** بداء السلّ.

.....

* **وليم بليك :** وُلد في **28** نوفمبر **1757** وتوفي في **12** أغسطس **1827** شاعر إنكليزي ورسّام ورسّام صحف.خلال حياته ولنصف قرنٍ بعد وفاته، كانت أعماله تُعتبر غير ذات أهمّية، وأحياناً كانت تُحتقَر بوصفها أعمال مجنون، لكنّها اليوم تُعدُّ علاماتٍ فارقةً في الشّعر والفنون البصريّة للعصر الرّومانتيكي.

.....

* **أبو القاسم الشابي : 24** فيفري **9 - 1909** أكتوبر **1934** م. شاعر تونسيّ من العصر الحديث وُلد في قرية الشابّية في ولاية توزر

2017 Tunisie College.net

.عليه. و يتبنّى في الآنِ نَفْسِهِ صراحةً النّموذَجَ الغرْبيَّ.
إنّ رُؤيةَ أعْلامِ الرّومنطيقيّة نموذجٌ للنّهْجِ الّذي اِلْتَزمهُ شُعراءُ الحداثةِ العرَبُ الّذينَ لَمْ يَتَورّعوا عن إسْقاطِ ثَوابتِ القصيدةِ القديمةِ (الوزن و القافية) و التّخلّي عن الوسائلِ الإيقاعِيّةِ الأُخْرى (المحسّنات البديعيّة).وكان البديلُ الّذي فَرَضَ ذاتَهُ عليهم هو الشّعر الغربيُّ مُجسّدًا في إنتاجِ أعلامِهِ مثل **عزرا باوند*** و **إليوت*** و **سان جون بيرس***.
غير أنّ ما يجبُ التّنبيهُ إليهِ هو أنّ القصيدةَ الحديثةَ رَغم استِنادها استنادا كبيرًا إلى النّموذجِ الغربيِّ ، فَإنّها لَمْ تَنْبَتَّ عنْ أصولِها الثقافِيّةِ و الحضاريّةِ. فالتّلاقُحُ الحَضارِيُّ مَقولةٌ هامّةٌ. بلْ إنّهُ قانونٌ يَسَيِّرُ جميعَ الوحداتِ الحضاريّةِ و الثّقافِيّةِ الإنسانِيّةِ. لكنّه لا يمكِنُ بِحالٍ من الأحوالِ أنْ يكونَ ذَوبانًا كُلِّيًا في الآخَرِ و انْصِهارًا تامًّا فيهِ. فَأعلامُ الحداثةِ الشّعريّةِ العربيّةِ تعاملوا تَعاملاً واعِيًا مع النّموذجِ الأجنَبِيِّ. و بِمُقْتضى هذا التّعامُلِ، راحوا يُؤَصِّلونَ التّجربةَ الحديثةَ في إطارِها الحضارِيِّ و الثّقافِيِّ . فَيُؤكّدون هَوِيّةَ القصيدةِ الثّقافِيّةَ و انتِماءَها الحضارِيَّ استِنادًا إلى بعضِ القَنواتِ لعلّ أهَمّها على الإطلاقِ **الأسطورةُ** . فما هي الأسطورة ؟ و ما مشروعِيّةُ القَولِ بِأبْعادِها الإنسانيّةِ ؟

الأسطورة هي مُحاولةُ الإنسانِ الأوّلِ في تَفسيرِ الظّواهرِ الكَوْنِيّةِ تَفسيرًا قَوليًّا. و الأسطورةُ هي دينٌ بِدائيٌّ . و هي الجُزءُ القَوْليُّ المُصاحِبُ للشّعائرِ الدّينيّةِ المُمارَسَةِ بالرّقْصِ أو الحركةِ في الأديانِ البِدائيّةِ الأولى. و الأسطورةُ هي مُحاولةٌ لِتَفْسيرِ ظَواهرِ الوجودِ و رَبْطِ الإنسانِ بها.يقولُ **هردر**:**"إنّ الحكاياتِ الشّعبِيّةَ بِأسْرِها و منها الحكايات الخُرافِيّةُ و الأساطيرُ، هي بِكُلّ تأكيدٍ بقايا المُعْتقداتِ الشّعبيّة.كما أنّها بقايا تأمّلاتٍ**

---

* **عزرا ويستون لوميس باوند : (Ezra Weston Loomis Pound)** شاعر أمريكي، ناقد، وموسيقي اعتبر أحد أهم شخصيّات حركة الحداثة في الأدب العالمي في أوائل وأواسط القرن العشرين. ولد في **30** أكتوبر **1885** ، وتوفي في **1** نوفمبر **1972**

* **توماس ستيرنز إليوت : (Thomas Stearns Eliot)** شاعر ومسرحيّ وناقد أدبيّ حائزٌ على جائزة نوبل في الأدب في **1948.** وُلد في **26** سبتمبر **1888** وتوفّي **4** يناير **1965.** كتب قصائد :أغنية حب جيّ. ألفرد بروفروك، الأرض اليباب، الرجال الجوف، أربعاء الرّماد، والرّباعيات الأربع .من مسرحياته :جريمة في الكاتدرائيّةوحفلة كوكتيل .كما أنه كاتب مقالة" التّقليد والموهبة الفرديّة ."وُلد إليوت في الولايات المتحدة الأمريكيّة وانتقل إلى المملكة المتّحدة في**1914** ، ثمّ أصبح أحد الرّعايا البريطانيّين في**1927** .

* **سان جون بيرس : (Saint-John Perse)**هو شاعر وديبلوماسيّ فرنسيّ وُلد يوم **31** ماي **1887** في جزر جوادلوب وتوفّي يوم **20** سبتمبر **1975.** تحصّل على جائزة نوبل في الأدب لسنة **1960.**

2017
Tunisie College.net

الشّعب الحسّيّة وبقايا قُواه وخِبراتِه حينما كان الإنسانُ يَحْلم لأنّه لم يكن يَعرفُ، وحينما كان يعتقد لأنّه لم يكن يرى، وحينما كان يُؤثِّرُ في ما حَولَهُ بِروح ساذجةٍ غيرِ مُنْقَسِمةٍ على نَفْسِها."

ولَقَدْ عَرفتْ كُلُّ الشّعوبِ الأسطورةَ والْتَقَتْ عندها. فهي تُراثُ الإنسانِ حَيْثُما كانَ. وعلى بُعْدِ المكان و اختِلافِ الزّمانِ يَلْتقي الإنسانُ بالإنسانِ عند نَسيج الأسطورةِ المُتشابهِ المُوحّدِ. ومن الأسطورةِ تَسَرّبتْ ألوانُ الأدبِ. ومنها تَحَرّرَ فكْرُ الإنسانِ لِيَخْلُقَ مُخْتَلف أشكالِ الأدبِ. والأساطيرُ على اختِلافِها وعلى اختلافِ أماكِنها وأزمِنتِها تُؤكِّدُ هذا التّفاعُلَ بين الشّعوبِ وتأثّرَ بعضِهم ببعض. ويذهبُ بعضُ الدّارسين إلى أنّهُ تكادُ لا توجدُ فِكرةٌ أسطوريّة ليس لها شَبيهٌ في مكانٍ آخرَ وزمانٍ آخرَ على اختِلافٍ واضِح بين الزّمانيْنِ والمَكانَيْنِ. يقول ***تيودور بنفي:" نَشأَتْ أنواعُ الحكاياتِ الخُرافِيّة في بلادِ الهندِ. وهي في أصلِها حكاياتٌ بوذيّةٌ كانت تُحْكَى لأغْراضٍ تَعليمِيّةٍ. ثمّ انتشرتْ في أوربّا عن طريقِ العَرَبِ."***

من هنا نرى أنّهُ لَيس هناك فاصِلٌ مكانِيٌّ أو زمانِيٌّ بين مَوْروثِ الإنسانِيّةِ من أساطيرَ. وإنّ الأسطورةَ لها جذورٌ في العالَمِ القديمِ والعالَمِ الوسيطِ. بَلْ ولها جُذورٌ في كُلِّ آدابِ الدّنيا ولَدى كُلِّ شُعوبِها.

طائر الفينكس

2017 Tunisie College.net

أسطورة التّنّين

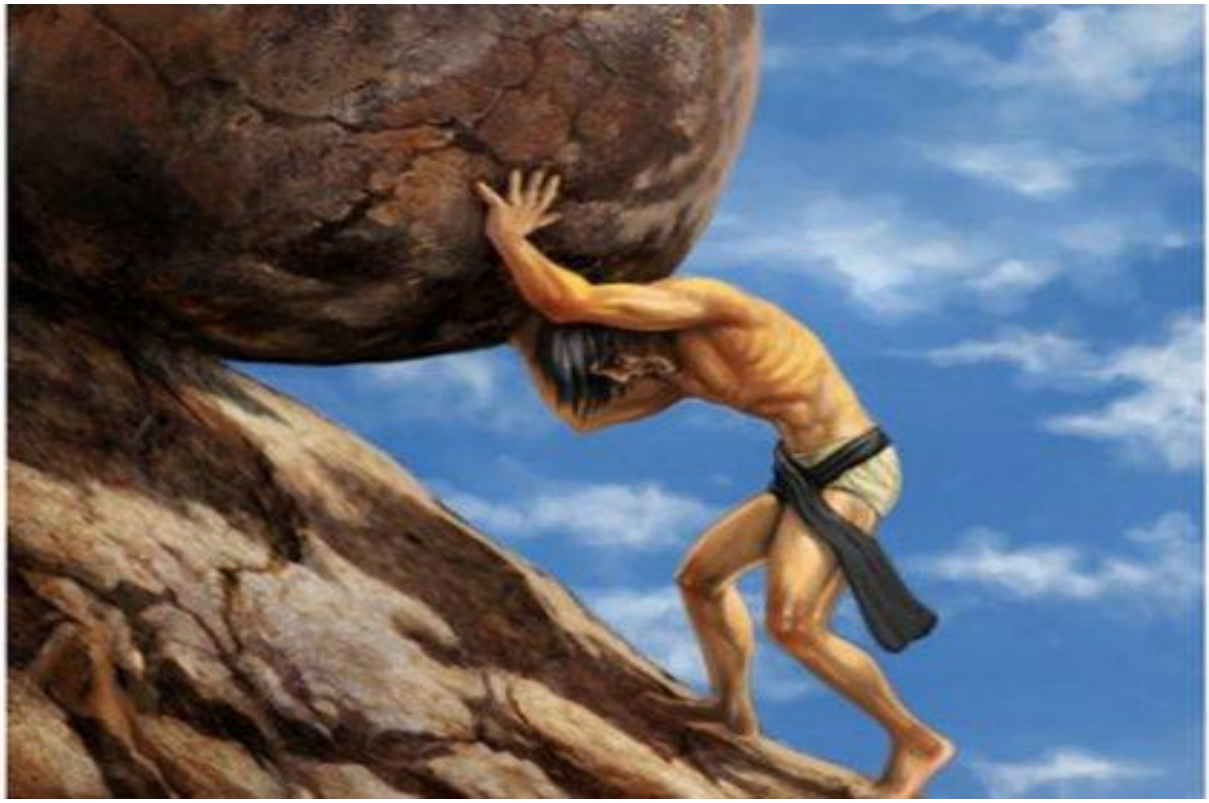

أسطورة سيزيف

2017
Tunisie College.net

المسرح فنّ وافد على الأدب العربيّ :

اِرْتَبَطَتْ نَشأةُ المسرحِ بالأدبِ اليونانيّ،حيثُ كان الإغريقُ يَخُصّونَ آلِهَتَهُمْ وخاصّةً " **ديونيسوس** [*] " إله الخِصْبِ والعِنَبِ والخُمورِ بِحَفْلَتيْنِ؛ واحدة تُقامُ في أوائلِ الشّتاء بعد جنْيِ العِنَبِ وعَصْرِ الخُمورِ، ويَغْلُبُ عليها المَرَحُ. فَتُنْشَدُ فيها الابتِهالاتُ الدّينيّةُ وتُعْقَدُ حلقاتُ الرّقصِ وتَنْطلِقُ الأغاني. ومنْ هذا النّوعِ من الطّقوسِ نشأت **المَلْهاةُ** أو **الكوميديا** . أمّا الحفلةُ الثّانِيةُ فَتُقامُ في أوائلِ الرّبيعِ عندما تَجِفُّ الكرومُ وتَتَجَهَّمُ الطّبيعةُ.فَيغلُبُ عليها طابَعُ الحُزنِ ومِسْحَةُ الاكتِئابِ.ومنها نَشَأت **المأساةُ** أو **التّراجيديا**. وتعني كلمة " **تراجيديا** " أغنية التَّيْسِ أو الأغنيةَ الحزينةَ. أمّا كلمة " **كوميديا** " فتعني المَوْكِبَ أو الحفلةَ أي الجانب التّرفيهِيّ من المسرح. .

أمّا عن موقعِ المسرح في الأدبِ العربيّ ، فَيَخْتَلِفُ عنه في الأدبِ الإغريقيّ والأدبِ الأوربّيّ . فالعرَبُ كَتبوا في كلّ شيءٍ عدا المسرَحَ. وقدْ وَقَفوا حِيالَهُ مَوْقِفَ الارْتِيابِ بل الرّفضِ.يقولُ **توفيق الحكيم** في مُقَدِّمةِ مسرحِيّتِهِ " **الملك أوديب** " : **"الأدبُ التّمثيليّ بابٌ لَمْ يُفْتَحْ في اللّغةِ العربيّةِ إلاّ في العصْرِ الحاضِرِ... وقد تَرَدّدَ الأدبُ العربيُّ في قَبولِ هذا اللّوْنِ الغريبِ عليْهِ ، فَتَرَكَهُ زَمَنًا خارِجَ جُدرانِهِ يَسْمعُ بِأمْرِهِ مِنْ أفواهِ النّظّارةِ دونَ أنْ يحْفَلَ بالالتِفاتِ إليهِ أو الخَوْض فيه."** .

وحَدَثَ أوّلُ ظُهورٍ للمسرَحِ في العالَمِ العربيّ في مِصْرَ على إثرِ حملةِ **نابليون بو نابّارت** الّذي جلب معه موسيقيّين ومُمثّلينَ للتّرفيهِ عن الضّبّاطِ. وأُنْشِئَتْ لِهذا الغرضِ دُورٌ تَسْتَقْطِبُ الجُمهورَ وتُعْرَضُ فيها العُروضُ. .

وتُنْسَبُ نَشأةُ المَسْرَحِ العَرَبِيِّ إلى اللّبنانيّ **مارون النّقّاش** [*] الّذي سافرَ كثيرًا إلى إيطاليا ، وأُعْجِبَ بِمسارِحِها.وهو ما حَفَزَهُ على إنشاءِ فرْقةٍ مَسْرَحِيّةٍ سنة **1847**،وقد تَمكّنتْ

---

[*] **ديونيسوس** : هو إله الخمر عند الإغريق القدماء ومُلْهِم طقوس الابتهاج والنّشوة، ومن أشهر رموز الميثيولوجيا الإغريقيّة .وتمَّ إلحاقه بالأوليمبيّين الإثني عشر .أصوله غير محدّدة لليونانيّين القدماء، إلا أنّه يُعتقَد أنّه من أصول "غير إغريقيّة" كما هو حال الآلهة آنذاك. كان يُعرَف أيضا باسم **باكوس** أو **باخوس**.

[*] **مارون النّقاش (1855 _1817)** : هو تاجر بيروتيّ لبنانيّ كان من الدّاعمين لفكرة المسرح العربيّ.قضى سنوات عدّة في إيطاليا حيث اكتشف هذا الفنّ الجديد وشُغف به. فلمّا عاد إلى لبنان.ترجم بالتّصرّف مسرحيّة موليير الشّهيرة **L'Avare** تحت عنوان **البخيل** سنة **1848** فعّرضت المسرحيّة على خشبة أقامها بمنزله. وكان الممثّلون رجالا من أهله (لم تبدأ النّساء في التّمثيل إلاّ في وقت لاحق). وحقّق بهذه المبادرة بعض النّجاح وسمحت له السّلطات العثمانيّة ببناء قاعة مسرح حقيقيّة.

2017 Tunisie College.net

مِنْ عرضِ أولِ أعمالها الموسومِ بـ" **البخيل** "(مسرحيّة موسيقيّة). وبعد مَوت **مارون النّقّاش**،واصَلَ أخوهُ **نيكولا** المهمّة.ثمّ حفيدُهُ **سَليم خليل النّقّاش**✲الّذي أنشأ أوّلَ فرقَةٍ تَنشَطُ في مِصر سنةَ **1876**. وكان المسرحُ في هذا الوقتِ يَسْتمِدُّ مادّتَهُ مِن الأدبِ الفِرنسيّ و الأدب الإنجليزيّ (**البخيل - موليير// روميو و جولييت - شكسبير)** وفي مصرَ كان رائدُ المسرح **يعقوب صَنّوع** ✲.ثمّ ظهرَ بَعدَهُ **يوسف وهبي**✲الّذي أنشأ "**وكالة مسرح رمسيس**" بعد عَوْدتِهِ من إيطاليا سنة **1923**. .

أمّا في تونس،فقد تأخّرتْ نشأةُ المسرحِ نِصْفَ قَرنٍ تقريبًا عن نَشأتهِ في مصرَ ولبنانَ. وقد ارتبَطَ ظُهورُهُ بِحُضورِ المُمثّل **سُلَيْمان أفندي قرداحي**✲ إلى تونس سنة **1908**.

خُلاصَةُ القَوْلِ أنّ العرَبَ لم يَعرفوا المسرحَ ،ولَمْ يَهتمّوا له باديَ الأمرِ نظرًا لِعدّةِ اعتباراتٍ (ثقافيّة ، دينيّة ، اجتماعيّة...) ولمْ يلتفتوا إليهِ إلاّ في النّصْفِ الثّاني من القرنِ التّاسعَ عشر بعد أنْ مُدّتْ جُسورُ التّواصُلِ بين الشّرقِ والغربِ بعد غَزْوِ **نابليون** لمصر.

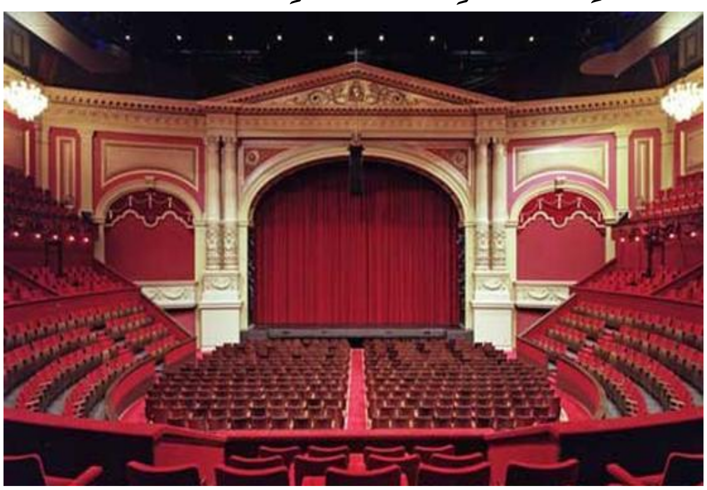

✲ ***سلِيم بن خليل النَّقَّاش*** *(ت. **1301** هـ / **1884** م)هو أديب لبنانيّ . ولد ببيروت وانتقل إلى الإسكندريّة سنة **1876** م، أصدر مع صديقه **أديب إسحاق** جريدة «**مصر**» عام **1877** م، ثم جريدة «**التّجارة**» عام **1878** م، فجريدة «**المحروسة**» عام **1880** م. توفّي بالإسكندريّة .له كتاب بعنوان «**مصر للمصريين أو حوادث الفتنة العرابية**» في تسعة أجزاء .*

***

✲ ***يعقوب روفائيل صنّوع*** *(**1839** _ **15** أفريل **1912**) : أحَدُ رُوّادِ المسرحِ المِصْريّ و الصّحافةِ السّاخرةِ.*

***

✲ ***يوسف وهبي*** *(**17** جويلة **1898** _ **17** أكتوبر **1982**): ممثّل ومخرج مسرحيّ وسينمائيّ من مصر، يُعتبَر أحد الرّوّاد في مجال السّينما والمسرح العربيّ .*

***

✲ ***سليمان قرداحي*** *(؟ ؟ - **1909**) ممثّل ومُخرج ومدير فرقة مسرحيّة سوريّ من روّاد المسرح العربي في مصر أواخر القرن التّاسع عشر، ومؤسّس المسرح العربيّ في تونس مطلع القرن العشرين. ولد في بيروت وتوفي في تونس .*

2017 TunisieCollege.net

2017
Tunisie College.net

خـاتـمـــة الـبحـث :

من خلالِ ما تَقَدّمَ ، يَبْدو واضِحًا أنّ التّفاعُلَ الثّقافيَّ بين الأمَمِ والشّعوبِ حاصِلٌ بالفِعْلِ وبالقُـوّةِ. وهو الجَوْهَرُ الّذي تَتَأسّسُ عليهِ الحضاراتُ. وهو يعني في جوهَرِهِ حركةً مزدوجةً قائمةً على التّأثيرِ والتّأثُّرِ. ولَقَدْ تَبيّنَ لنا مِنْ خلالِ الأمثلةِ السّابقةِ أنّ العربَ عبر تاريخِهِم الطّويلِ قدْ أثّروا في غيرِهِمْ وتَأثّروا بهِمْ. والجديرُ بالذّكْرِ أنّ مَبْدأَ التّأثيرِ والتّأثّرِ ليس مقترنًا بحالِ القُوّةِ أو حالِ الضّعفِ. بلَ هو حركةٌ دائبةٌ وقانونٌ يَسْري في كِلْتَيْهِما .

إذَنْ، فالتّفاعُلُ حاصِلٌ لا مَحالةَ. والشّعوبُ والأمَمُ وإن اخْتَلَفتْ وتَبايَنَتْ مُتفاعِلةٌ أبَدًا تُوحّدُ بينها عَوامِلُ عَديدةٌ. وهو ما جَعَلَ عَديدَ الإنتاجاتِ الثّقافِيّةِ تَتّجِهُ إلى الإنسانِ عامّةً دونَ تَمييزٍ في عِرْقٍ أو لَونٍ أو مَكانٍ مثلَ الفُنونِ والأدبِ.

بَيْدَ أنّ هناكَ أنْساقًا مِنَ التّفكيرِ تَعْمَلُ على طَمْسِ هذا التّفاعُلِ، فَتُثْبِتُ الفَوارِقَ بَيْنَ الحَضاراتِ والثّقافاتِ . وتَجْتَهِدُ كَيْ تُقيمَ الحُدودَ بين الشّعوبِ والأُممِ لِتَحْقيقِ غاياتٍ ومَصالِحَ وهي تَسْتَنِدُ في ذلك إلى فكرةِ التّفاضُلِ بين الشُّعوبِ. ولَعلّ أبرَزَ النّزعاتِ الّتي تُمثّلُ تلك الأنساقَ النّزعةُ العنصريّة والاستِعمارُ والفكرُ الدّغمائِيُّ المُتَصَلِّبُ .

لَقَدْ اسْتَنَدَ الاستِعمارُ أساسًا إلى فكرةِ التّفَوُّقِ الّتي خَوّلَتْ لِشُعوبٍ أنْ تُهَيْمِنَ على غَيْرِها وتَسْتغِلّها أبشَعَ استِغلالٍ.

وتُمثّلُ العنصريّةُ وجهًا آخَرَ للهَيْمنةِ والاعتِداءِ على الإنسانيّةِ؛ فهي تُفاضِلُ بين الشّعوبِ على أساسِ العِرْقِ والجنسِ واللّونِ. ويُمكِنُ أنْ نَتَمَثّلَ في هذا الإطارِ الحركة **الصّهيونيّةَ** الّتي تَبَلْورَتْ مِنْ خلالِ تفاعُلِ أفكارِ الهَيْمَنَةِ الاستِعمارِيّةِ والسّمُوِّ القَوميِّ والتّفَوُّقِ العُنْصُرِيِّ . كما يُمكِنُ أنْ نَستَحْضِرَ فكرةَ الجنسِ **الآري** الّتي تُصَنِّفُ الشّعوبَ بِجَعْلِها أجناسًا بعضها فوق بعضٍ بِحُكْمِ الفِطرةِ والتّكوينِ. وأهمّ أعلامِها المُفكِّرُ **رينان*** **RENAN** الّذي يُعْتَبَرُ أوّلَ مَنْ قَرّرَ أنّ الجنسَ السّاميَ دون الجنسِ الآري مَرْتَبَةً مِنْ ناحِيةِ المشاعِرِ والرّوحِ والعقليّةِ والعاطِفةِ والتّفكيرِ. يقولُ في ذلك :**"أنا إذن أوّلُ مَنْ عرف أنّ الجنسَ السّاميَ إذا قوبِلَ بالجنْسِ الهِنْدِيِّ الأوربّيِّ يُعْتَبَرُ حَقًّا تَرْكيبًا أدْنى للطّبيعةِ الإنسانيّةِ."**

---

* أرنست رينان (28 فيفري 1823 - 1892) : مؤرّخ وكاتب فرنسيّ اشتهر بترجمته ليسوع الّتي دعا فيها إلى نقد المصادر الدينيّة نقدًا تاريخيًّا علميًّا وإلى التّمييز بين العناصر التّاريخيّة والعناصر الأسطوريّة الموجودة في الكتاب المقدّس. ما أدّى إلى قيام الكنيسة الكاثوليكيّة بمعارضته.

2017 Tunisie College.net

وغيْر بَعيدٍ عنْ هذا التّعَصُّبِ الفكريِّ، مَوْقِفُ هؤلاءِ الّذينَ يَرفضونَ فِكْرَ الآخَرِ ويُقْصونَهُ تَمامَ الإقْصاءِ. فَنحْنُ لا نزالُ نذكُرُ تلك الأصْوات الّتي هَبّتْ مُنادِيةً بِرَفْضِ ثقافَةِ الغَرْبِ وحَضارَتِهِ عند انقِداحِ جَذْوةِ النّهضةِ العربيّةِ الحديثةِ. وكانت تُبَرِّرُ رَفضَها بأنّ الغربَ "**دارُ كُفْرٍ**" ولا يجوزُ شرعًا التّعامُلُ مَعَهُ. وهذه الفكرةُ إنّما هي مِنْ رَواسِبِ الفكر المُتحَجِّرِ الّذي يُطْلِقُ مَقولاتٍ يَنسِبُها إلى الدّينِ والدّينُ منها بَراءٌ. فالإسلامُ في جَوهَرِهِ دعْوةٌ إلى التّفاعُلِ الإيجابيِّ والتّسامُحِ. ويُمْكِنُ أنْ نَسْتَشهِدَ على ذلك بِسيرَةِ السّلَفِ؛ فـ**صلاحُ الدّينِ الأيّوبيُّ**[*]، وهو يُصارِعُ أكبَرَ خَطَرٍ وأعْتى قُوّةٍ تُهَدِّدُ الدّولةَ الإسلامِيّةَ خلالَ الحملةِ الصّليبيّةِ، عَمَدَ إلى مُساعدةِ **رتشارد قلب الأسد**[*] قائد الحملةِ على الشّفاءِ إثر إصابتِهِ بسهمٍ مَسمومٍ. والرّسولُ قدْ عفا عن **أبي سُفيانَ** زعيم قُرَيْش وزوجَتِهِ **هندٍ** الّتي لاكَتْ كَبِدَ عمّهِ **حمزةَ** خلالَ حربِ أحُد.

منْ ناحيةٍ أخرى، إنّ التّفاعُلَ وإنْ كانَ ضَرورِيّا، فَإنّهُ لا يعني الانصِهارَ حَدَّ التّماثُلِ والذَّوَبانِ. فالثّقافاتُ وإنْ كانتْ بينها خطوطُ تَماسٍّ والْتِقاءٍ، فهناكَ ما يُمَيِّزُ كُلّ ثقافةٍ عنْ غيرِها، وهو ما يُثْبِتُ هَوِيّتَها ويُؤصِّلُ انتِماءها. كما أنّ التّفاعُلَ لا يعني الاندِماجَ غَيْرَ الواعي في ثقافَةِ الآخَرِ. فالتّعامُلُ مع الآخَرِ يَجِبُ أنْ يكونَ تَعامُلاً نَقْدِيّا يُمكِّنُنا مِنْ تَمْييزِ الإيجابيِّ منَ السّلْبِيِّ. وإذا لمْ نعتمِدْ هذا المِعيارَ النّقديّ، فسَيُصْبِحُ وجودُنا مُهَدّدًا وثقافَتُنا مُسْتباحةً. وهو ما يفتَحُ البابَ أمامَ الغزوِ الفكريّ والاستِلابِ الحضاريِّ والانسِلاخ الثّقافيّ. وهو أبشعُ وُجوهِ الاستعمارِ. والمستعمِرُ ـ كما لا يخفى على كُلِّ ذي لُبٍّ ـ يعملُ على ضَرْبِ المُقوّماتِ الحضاريّةِ للشّعوبِ المُستَعْمَرَةِ.

إذنْ، فالمطلوبُ هو التّعامُلُ مع الآخَرِ تعامُلَ الكُفْءِ مع الكُفْءِ بما يُؤكِّدُ الهَوِيّةَ الثّقافِيّةَ والانتماءَ الحضاريَّ.

---

[*] **الملك النّاصر أبو المظفّر صلاح الدّين يوسف بن أيّوب بن شاذي بن مروان بن يعقوب الدُويني التّكريتي (532 هـ ـ 589 هـ // 1138 ـ 1193)** المشهور بلقب **صلاح الدين الأيّوبي** قائد عسكريّ أسّس الدّولة الأيّوبيّة الّتي وحّدت مصر والشّام والحجاز وتِهامة واليمن في ظلّ الرّاية العبّاسية، بعد أن قضى على الخلافة الفاطمية الّتي استمرّت **262** سنة .قاد صلاح الدّين عدّة حملات ومعارك ضد الفرنجة وغيرهم من الصّليبيين الأوروبّيين في سبيل استعادة الأراضي المقدّسة التي كان الصّليبيّون قد استولوا عليها في أواخر القرن الحادي عشر، وقد تمكّن في نهاية المطاف من استعادة معظم أراضي فلسطين ولبنان بما فيها مدينة القدس، بعد أن هزم جيش بيت المقدس هزيمة منكرة في معركة **حطّين.**

[*] **ريتشارد الأول (8 سبتمبر 1157 ـ 6 أفريل 1199)**: ملك إنجلترا منذ 6 جويلية 1189 وحتّى وفاته.

****

2017 Tunisie College.net